تجليات العنف في نماذج من الروايات السعودية - دراسة نصية -

الأستاذ الدكتور صباح عبدالرضا إسيود
جامعة البصرة/مركز دراسات البصرة والخليج العربي

الملخص:-

تعددت تجليات العنف في الروايات السعودية وتنوعت بين مشارب عدة، فمنها ما يعود إلى العنف السياسي وذلك ما وجدناه بصفة خاصة في رواية (شرق المتوسط) للروائي الشهير عبدالرحمن منيف، ومنها ما يعود للعنف الديني الذي بدأ يتغلل في المجتمع السعودي وصار يشكل ظاهرة كبيرة بدأت تغزو المجتمع وذلك ما توقفنا عنده في رواية (الإرهابي ٢٠) لعبدالله ثابت، ومنها ما يعود إلى العنف الاجتماعي الذي لمسناه في رواية (غراميات شارع الأعشى) لبدرية البشر. من دون أن نعدم تواجد هذه التجليات في روايات أخر؛ بل أن هذه الروايات المدروسة نفسها لم تقتصر على نوع واحد من العنف فحسب، إذ قد يتداخل في الرواية الواحدة أكثر من تجلٍ واحد من التجليات التي رصدناها في تتبعنا لظواهر العنف في الرواية السعودية المعاصرة، وبما يدل على تفشي هذه الظاهرة وتغلغلها في السرد السعودي.

المقدمة:-

جنحت الرواية السعودية في الحقبة الأخيرة إلى ملامسة الذات والتعبير عن خلجاتها بشتى الصور بعد أن راهنت طويلاً على السرديات التي تمت بصلة قوية إلى حياة الصحراء والماء، أو ما يطلق عليه السرد الخارجي الذي يتناول قضايا المجتمع العامة. وذلك ما أفضى إلى الولوج في عالم الكبت والتعنت الذي تمارسه السلطات الدينية أو السياسية وحتى الاجتماعية بحق الأفراد والجماعات. وهو ما كان سبباً لأن يتجلى العنف بأشد صوره في الروايات المتأخرة؛ لأن بعضاً من الأدباء السعوديين قد دأب على استلهام تجاربه الخاصة الماثلة في التعرض إلى العنف؛ وقد برز ذلك في استلهام هؤلاء الأدباء لتجاربهم أو تجارب معارفهم وتكرر بصورة ملحوظة، مما كان دافعاً لبعض الدارسين لأن يطلق عليه أدب السجون في الثقافة السعودية[١]. الذي ألفينا صداه يتردد عند كثير من الأدباء، ولعل أبرزهم الكاتب الكبير عبدالرحمن منيف في عمله الكبير (شرق المتوسط) في مدة متقدمة من عمر السرد السعودي والعربي على حد سواء، والكاتب تركي الحمد في روايته (كراديب) والكاتب عبدالكريم الجهيمان في روايته (مذكرات وذكريات من حياتي) والروائي إبراهيم الناصر الحميدان في روايته (غربة المكان) والروائي عبدالله ثابت في رواية (الإرهابي ٢٠) والكاتبة سمر المقرن في روايتها (نساء المنكر) والكاتبة بدرية البشر في روايتها (غراميات شارع الأعشى)، فضلا عن كتابات عبدالله الجفري وعابد العابد وغيرهما ممن نبس ببنت شفة إلى هذه الحياة القاسية وناقش قضية العنف التي بدأت تتفاقم في شرائح المجتمع بفعل التشبع بثقافة الإقصاء ونبذ الرأي الآخر وتحريمه بل وتكفيره وإخراجه عن ملة الإسلام. وذلك ما لمسناه بصفة خاصة في بعض كتابات بدرية البشر ولا سيما روايتها (غراميات شارع الأعشى) التي أظهرت فيها تحول المجتمع السعودي نحو العنف بفعل ممارسات دينية واجتماعية طارئة غيَّرت التفكير الجمعي لدى أفراد المجتمع؛ وفي ضوء هذه الممارسات انتحل الشباب حياة جديدة وطارئة بحيث لم يدر بخلد أحد أن يصبح الشباب هم الأكثر تعنتاً والأكثر ميلاً للتشدد في الدين والحياة.

إن تكرار ظاهرة العنف وبروزها لدى عدد لا يستهان به من الأدباء السعوديين جعلنا نركز حديثنا على الروايات المهمة التي تطرقت إلى هذا الجانب فحسب ونشير إشارة إلى الروايات الأخرى، لأن أي بحث محدود لا يمكنه أن يقف على الروايات السعودية كافة التي تطرقت إلى العنف والتي جعلته محوراً من محاورها أو بنيت عليه العمل الروائي كله؛ كما تجلى ذلك في رواية (شرق المتوسط) لعبدالرحمن منيف؛ التي تعد من أهم الروايات التي سنتوقف عندها على أساس أنها اتخذت من السياسة سبيلاً لإظهار العنف وتبريره على الساحة المحلية، كما أن العنف قد يكون متجلياً بسبب الظاهرة الدينية التي بدأت تغزو الفكر السعودي ولا سيما لدى الشباب واليافعين وهو ما ألفينا آثاره في رواية (الإرهابي ٢٠) لعبدالله ثابت بصفة خاصة، من دون

أن نعدم وجود هذه الظاهرة في روايات أخر ومنها على سبيل التمثيل رواية (غراميات شارع الأعشى) لبدرية البشر التي توقفت ملياً عند ظاهرة العنف الديني الذي بدأ يسود الساحة السعودية وعند فئة الشباب بصفة خاصة إلا أن العنف الديني الذي مارسه (سعد) ابن الجيران تجاه حبيبته وأهل بيته قد تشارك مع عنف من نوع آخر وهو العنف الاجتماعي، ولذلك فقد تناولنا هذه الرواية بوصفها ممثلة للعنف الاجتماعي. وسوف نتوقف عند هذه الروايات الثلاث بوصفها ممثلة لهذه الظاهرة التي تسود المجتمع والتي عبر عنها الكثير من الروايات السعودية، ولعل رواية (شرق المتوسط) من أهم الروايات التي تتبين معالمها من خلال تركيزها على ثيمة العنف السياسي بدرجة لا نكاد نجدها في غيرها من الروايات السعودية، ولتكون مدخلا لممارسة العنف في الرواية السعودية.

أولاً: العنف السياسي في رواية (شرق المتوسط) لعبدالرحمن منيف:

على الرغم من أن كثيراً من روايات القرن العشرين قد تطرقت وبدرجات متفاوتة إلى موضوع السجن السياسي تعد هذه الرواية من الروايات المبكرة التي تناولت ظاهرة العنف السياسي في عموم الروايات العربية؛ إذ إنها صدرت في منتصف السبعينيات من القرن العشرين، بعد أن سبقت برواية (الأشجار واغتيال مرزوق) التي تحكي عن رجل يفر من بلده بعد تعرضه للاعتقال والتعذيب، ولكن هذه الرواية - شرق المتوسط - لم تنطلق من بيئة محددة بذاتها وإنما جعلت ساحة منطقة الشرق الأوسط برمتها مكانا لها. وقد نهضت الرواية على قضية الحرية التي تعد هاجساً أساسياً متردداً في عموم الروايات العربية ولكنها عند منيف ذات شكل متكرر على اعتبار أن "تجربة السجن إحدى المحاور الرئيسية لأعماله الروائية"[٢]. التي أدت ببطلها إلى أن يدخل السجن؛ فبطلها (رجب) يدخل بتجربة قاسية في عالم السجون ويُمارس بحقه شتى صنوف العنف مما كان سبباً لأن يبوح لسجانه بالذي يطلبه منه، وهو التعهد بعدم العودة للعمل السياسي وعند خروجه من السجن يواجه بما هو أشد من هذه الحياة القاسية؛ إذ إنه يعرِّض نفسه لموجات من الندم لكونه قد وقّع على التعهد الذي أباح له أن يخرج من السجن. وذلك كله من دون أن نجد ذكراً لمكان أو زمان معينين، وكأن الرواية تريد تعميم حالة البؤس في المجتمعات العربية كلها ولا تقتصر على بيئة محددة بذاتها، أو أنها اتخذت سبيل التخفي من النظام السياسي على أساس أنها لم تذكر مكانا بعينه وعلى امتداد الرواية. وهي تشترك في هذا الشأن مع معظم الروايات العربية التي تصدت لظاهرة القمع في الواقع العربي والتي ترمي من خلال التركيز عليه إلى استعادة ما سلب من الإنسان. ولذلك عدَّ القمع عند كثير من الباحثين العرب محوراً أساسياً في الخطاب الروائي العربي المعاصر[٣].

إن ممارسات مثل "الضرب، السجن الانفرادي، التعليق في السقف، المياه الباردة في الشتاء على السجين، المنع من النوم"[٤]. فضلا عن ممارسات أخرى مثل اللسع بالكهرباء والسجن بالمرحاض واستخدام الأضواء

العالية وتوجيه أصوات التعذيب كي تكون مسموعة للمساجين وحتى الغناء الذي استعملوه وسيلة للتعنيف[٥] هي ممارسات متكررة وقد تحمّلها السجناء جميعهم بلا استثناء لأحد منهم، وكلها تصب في المجرى ذاته وتدل على أن السجانين كانوا يمارسون أبشع أنواع الممارسات السادية إزاء هؤلاء المساجين؛ إلى الحد الذي صار فيه المتحدث وهو بطل الرواية (رجب) لا يجد في هذا العنف مبرراً لإيقاظه من نومه لكثرة تعرضه له " أغمي عليَّ مرات كثيرة. وآخر مرة لم يعد الماء البارد أو الصفعات كافية لإيقاظي"[٦]. فضلا عن المعاناة النفسية جراء القذف والسب والشتم بحيث يتردد أحيانا على لسان البطل (رجب) ألفاظ سوقية سمعها من حاتم آمر الحرس أو من أحد الحراس في المعتقل مثل ابن الزانية وابن القحبة وألعن أجداد أجدادك وابن الكلب وهناك كلمات لم يبح بها وإنما ذكر في بعض الأحيان الحرف الأول منها وعلّق عليها في الحاشية كلمة قبيحة وأحيانا يقول كلمة قبيحة جدا[٧] ..إلخ، فضلا عن تعرضه للتحرش الجنسي على يد نوري وجماعته[٨] ولذلك يتكرر في الرواية أقوال كثيرة من قبيل قول أحد الحراس"- أخرس يا ابن الكلب، إذا سمعت صوتك مرة أخرى يا ابن... ألعن أجداد أجدادك"[٩] و "قل كلمة يا ابن القحبة"[١٠] و "قل أي شيء يا ابن العاهرة، اشتم ..أما أن تظل ساكتاً، فسوف تغرق في البول حتى تموت"[١١]. فضلا عن ممارسة العنف بأنواعه المعروفة كلها من قبيل الضرب والتعليق بالحبل لأيام وإطفاء السكائر في الوجه والصدر والضرب على الرأس؛ يقول: "دق رأسي بالجدران مئات المرات، كما تدق المسامير في أخشاب السنديان ... بعد ذلك ضربوني بالسياط. كنت عاريا لما ضربوني"[١٢].

وقد كانت تجربة السجن ثقيلة الوطأة على البطل بحيث أنه يفقد فيها أشياءه المهمة واحدة تلو الأخرى، فبعد فقدانه صحته فقد أمه التي لم يُخبره أحد بموتها إلا عندما زارته أخته أنيسة وعمته في السجن. وحين سأل عنها عرف أنها ماتت مما أصابه في الصميم وأضاف إليه أعباءً نفسية جسيمة فوق معاناته الجسدية، ومن ثمَّ فقد حبيبته هدى "بعد وفاة أمي بسنة، سقطت هدى كانت هدى أقوى الآمال التي تشدني إلى عالم الحرية، كنت أتصورها مثل بطلة الأساطير لا تمل من الانتظار، لكن لم تنتظر. قالت لي في آخر رسالة :"أنا مرغمة على الموافقة يا رجب، ولكن سأحتفظ بالذكرى إلى الأبد". أي نفع من الذكرى يا هدى؟"[١٣]. وهكذا ضاعت حبيبته بفعل ظرف السجن القاهر الذي لا يسمح لسجين محكوم بإحدى عشرة سنة أن يعقد قرانه بمن يهوى. ولا سيما أن أهلها كانوا يمارسون دورهم الاجتماعي الذي يريد للبنت حياة بعيدة عن السجون والمعتقلات على الرغم من معرفتهم بالعلاقة التي تربط رجب ببنتهم "لو كنت طليقاً لما استطاع أحد من أهلها أن يحتج أو أن يقول كلمة واحدة"[١٤]. وذلك هو مربط الفرس كما يقال، فبعد أن كان يتصور أن حبيبته هدى ستنتظره مثلها مثل بنلوب في الأساطير اليونانية التي كانت تردُّ الخطاب عنها في غياب زوجها الذي كانوا يعتقدون موته إلا هي، يتفاجأ رجب بأنها قد سقطت في الامتحان بعد أن لبت رغبة أهلها بالزواج من شخص

آخر، في حين أنها نفسها كانت تتمنى الموت ولا يلمسها أحد غير رجب[١٥]، وكانت تفكر بالهرب "هل أهرب يا أنيسة؟ لا أطيق أن أتزوج غير رجب"[١٦]. لكنها وبعد مدة من الزواج تغيرت إلى حد أنها أرادت أن تسترد الرسالة التي كتبتها إلى رجب والتي أودعتها عند أنيسة على أمل أن تصل إليه بعد خروجه من السجن. وهي تبرر ذلك بأن زوجها سيقتلها إن علم بمحتوى الرسالة.

وتتعدد مشاهد المعاناة الجسيمة أمام رجب وهو لا يستطيع فعل شيء، إلى الحد الذي كانت فيه أمه تتعرض إلى سيل من الشتائم والممارسات اللاأخلاقية عندما كانت تأتيه زائرة في السجن، ومن ذلك أن أحد السجانين قد أمسكها مرة من صدرها ليسلب عفتها ولم يشفع لها كونها المرأة الكبيرة في السن. ولذلك فهم برأيه قد قتلوها؛ يقول: "هم قتلوها .. كانوا يطردونها عن بوابة السجن، هي والأمهات الأخريات مثلما يطردون الكلاب، كانوا يضربونهن بالعصي، يشتمونهن، كانوا يقولون عنهن بغايا وقوّادات. ولا يتورعون عن شيء أبداً ... قالوا لها لو لم تكوني بغياً لما خلفت هذا القواد، وأشاروا إليَّ، وهم يدفعونها أمامهم"[١٧]. وعندما خرج من السجن وحلَّ ضيفاً عند أخته أنيسة وزوجها حامد أخبرته أنيسة بقصة مقتلها أو السبب في موتها؛ وهو أنها كانت قد جمعت عدداً من أمهات وزوجات ونساء المعتقلين لمقابلة وزير الداخلية بعد أن أقنعها أحدهم بهذه الفكرة؛ وحين رفض الوزير المقابلة صممن على الموت من دون مطلبهن فكشفن عن رؤوسهن ونفشن شعورهن وبدأن بالصراخ والعويل " ولما حاول الوزير الخروج هجمن عليه. ويبدو أن الضربة التي تلقتها على أضلاعها عجلت في نهايتها"[١٨]. فضلا عن اعتقالها الذي لم يدم طويلا، وعندها ندرك أنها تعرضت للاعتقال والتعنيف من قبيل الضرب والإهانة والسب والشتم وهو ما أفضى بها إلى أن تدخل في غيبوبة قاتلة أسلمتها إلى مصيرها المحتوم.

وحتى أخته أنيسة فإنها تعرضت إلى تصرفات غير لائقة من رجال الأمن مما عرضها إلى معاناة نفسية وجسدية لا تحتمل "كنت أواجه احتمال الطلاق من حامد، وكنت لا أتكلم عن التصرفات التي أتعرض لها: بصقت في وجه اثنين من الشرطة عندما أسمعاني كلمات بذيئة، ونزعت حذائي أكثر من مرة وهددت المخبر بالضرب"[١٩].

أما معاناته هو فهي تتجسد في الرواية كلها وليس في جزء محدد منها بحيث لا نستطيع أن نغض النظر عن تلك المعاناة بأية صفحة أو موقف منها. فعندما تعرض للاعتقال بدأت أول صورة من صور التعذيب والاضطهاد " أوقعني خرطوم الماء المندفع من أعلى، وخلال فترة قصيرة كنت أعوم في بركة من المياه ... لم أنم.. ظللت طوال الليل أرتجف، حاولت كثيراً بطرق لا حصر لها من أجل أن أتخلص من الماء، لكن ذهبت محاولتي وأفكاري دون جدوى"[٢٠]. ثم يتعرض إلى سيل من المعاملات القاسية التي تتمثل بصنوف العذاب كلها ومن ثم الاستجواب، وهو ما يتجلى من محاولة نزع الاعترافات منه بطريقة وحشية وبعيدة عن

الممارسات الإنسانية ومن ذلك قوله " مددوني على طاولة، كنت عارياً تماماً، وجهي باتجاه الأرض، ورأسي يترنح من الضربات، لا أعرف أي عدد من السجائر أطفأوا في ظهري، على رقبتي داخل أذني وبين اليتي، كانوا يضحكون أول الأمر، وأنا أحاول الدفاع عن نفسي بساقي الطليقتين. رفست مرتين أو ثلاث مرات، ولما حاولت في المرة الرابعة حزموا رجلي بقوة، وبدأوا يصرخون اعترف .. اعترف يا ابن الزنا"[٢١]. وتتلاحق صور التعذيب والتعنيف تجاه البطل رجب من دون مراعاة لأية حقوق أو إنسانية وكأننا في عالم الغاب وشريعة المتجبرين الذين لا يراعون ذمة ولا أية حقوق. يقول "ضحكوا وأنا أتلوى، بصقوا علي، أحسست بماء ساخن فوق ظهري.. هل كانت دمائي تتفجر في مكان ما وتترنح بسخونتها؟ هل كانت قطرات من البول؟ هل كانت شيئاً آخر!؟"[٢٢].

وينقل رجب صوراً متعددة من أفعال رجال الشرطة تمثل قمة المعاناة وبصفة خاصة عندما أدخلوه في كيس كبير ومعه قطتان؛ يقول :" وضعوني في كيس كبير، أدخلوه في رأسي، وقبل أن يربطوه من أسفل، أدخلوا قطتين، ...كانت يداي مربوطتين إلى الخلف، كنت مستلقياً على وجهي أول الأمر، وكلما ضربوا القطط وبدأت تنهشني، وحاولت أن انقلب على جانبي، أحسُّ برجلٍ ثقيلة فوق كتفي، على وجهي، وأحسُّ الأظافر تنغرز في كل ناحية من جسدي. لما فكوا الكيس ... كنتُ دامي الوجه وأحسست بالنزف من عيني اليسرى"[٢٣]. فهناك تفنن في طريقة التعذيب وإصرار من السجانين على أن يمارسوا أبشع أنواع العنف بحق السجين، وقد زاد فعلهم حلقات عما فعلوه في المرات السابقة. فبعد أن مرَّ المعتقل بسلسلة من الإجراءات العنيفة بدءاً من خلع ملابسه وكيه بأعقاب السجائر في كل مكان من جسمه أدخل في كيس كبير ومعه قطتان وقيدت يداه إلى الخلف حتى لا يتمكن من الدفاع عن نفسه ومن ثم أغلق الكيس وباشر السجانون بركله وجره هو والقطتان اللتان بدأتا تنهشان وجهه وجسده.

ولم تكتف السلطات الحاكمة والمستبدة بهذه الأعمال المخزية في اعتقاله الأول وإنما تابعت الشأن ذاته عندما اعتقلته للمرة الثانية وبعد عودته من رحلة العلاج في بلاد الغرب، على الرغم من إجباره على التوقيع على التعهد الذي يلزمه بعدم العودة إلى العمل السياسي والذي ظل يلاحقه ككابوس وأفقده صفات الرجولة التي كان يتشبث بها، يقول: "كنت صامدا، كنت أقوى من الجمل في صبره واحتماله، لكن في لحظة خرساء سقطت"[٢٤]. وهذا السقوط ظل يلاحقه حتى في سفره إلى باريس "لم يعد لي بعد أن وقعت تلك الورقة المشؤومة أن أتكلم عن الحرية، عن باريس، لو كنت رجلا لظللت هناك وصمدت حتى النهاية"[٢٥]. وهذا ما يفضي إلى القول إن هناك نكوصاً وتراجعاً سلب البطل ما كان يمثل قوته ولهذا ظل يردد ذكر يوم الأربعاء ١٧ أكتوبر/تشرين الأول، وهو يوم توقيع التعهد، كلما سنحت الفرصة لذلك بوصفه يوماً مشؤوماً ظل يلاحقه. بيد أنهم اعتقلوا زوج أخته حامد وجعلوه رهينة لحين عودة رجب وساوموه على الإفراج عنه بعودة رجب

وتسليم نفسه "إن حامد رهينة الآن، أوقف خلال الفترة الأخيرة...لقد حددوا له شهراً، وطلبوا منه خلاله حضورك"[٢٦]. لأنه كفله في الخروج من السجن. "يريدون أن يبقوا حامد رهينة، حتى يتعاون معهم رجب أو يعود"[٢٧] ، وتلك حالة لا إنسانية أخرى يدفع بموجبها حامد زوج أنيسة أخت رجب راحته بجريرة لم يكن له ذنب فيها سوى أنه كفيل شقيق زوجته؛ مما يفضي إلى القول إن المعاناة كانت عامة وقد شملت الأقرباء والأصدقاء؛ وبما يعكس الوضع البائس الذي يعيشه الإنسان العربي عموما.

وعلى الرغم من تلك الممارسات السادية والعنف الكبير يبقى الأمل معقوداً عند بطل الرواية على فضح الأنظمة السياسية التي كانت السبب الذي أوصل الإنسان العربي إلى هذا الوضع المزري. وهنا يتوقف الفعل الثوري وحسب ولم يعد تغيير الأنظمة هو المحرك على الأقل في هذا الوقت؛ وهذا ما يمكن استبانته من الرسالة التي بعثها رجب إلى أنيسة والتي يطلب منها كتابة رواية جماعية يشترك فيها حامد والأولاد بعنوان (التعذيب) الذي يبدأ بسرد أحداثه إلى الدكتور فالي الذي يعالجه في فرنسا على أمل أن يوصل معاناة شعبه إلى الصليب الأحمر في جنيف وغيره من المنظمات الإنسانية "سيضج العالم كله عندما يستمع إلى قصص العذاب التي لا تتوقف ... سوف ترتفع ملايين الأصوات، في نشيد واحد مخيف، تطلب إنهاء ((الحفلات)) المستمرة"[٢٨]. وفي هذا دلالة على قوة شكيمة تلك الأنظمة إزاء شعوبها وانحسار الأمل الذي بدأت حلقاته تضيق شيئاً فشيئاً، بدليل أن الغاية الآن صارت تتجه إلى فضح الأنظمة وممارساتها اللاإنسانية التي تعامل بها مواطنيها وحسب، بعد أن كان المطلب زوالها وإنهاء حكمها.

ثانيا : العنف الديني في رواية الإرهابي ٢٠ لعبدالله ثابت:

على الرغم من أن هناك روايات سعودية كثيرة تناولت موضوعة العنف الديني وما صحبه من مستجدات على الساحة المحلية السعودية ومن ثمَّ ما أفرزته في الساحة الخارجية تظل رواية (الإرهابي٢٠)[*] من أكثر الروايات السعودية تجسيداً لهذه الظاهرة وتفسيراً لمستويات وجودها ومنطلقاتها على الساحتين المحلية والدولية. فقد وجدنا -على سبيل التمثيل- رواية غراميات شارع الأعشى لبدرية البشر تتوقف عند التشدد الديني وتصل إلى ما انتهت إليه هذه الرواية من مسببات التشدد الديني، مما سنتناوله لاحقا، لكن هذه الرواية قد فتحت الباب على مصراعيه لتضع الأسباب الكامنة خلف التشدد وممارسة العنف بشكله الديني الذي قد يضمر عنفاً اجتماعياً معه ولكنه لا يعير أهميته إلا للنمط الديني المتشدد.

فبطل الرواية (زاهي الجبالي) الذي يحمل معه تناقضات القرية والمدينة في مدينة أبها يعيش التضاد بكل ما تحمله هذه المفردة من معنى، هو يحمل التضاد منذ طفولته أو حتى قبل الولادة على أساس أن الجينات التي يحملها تؤدي به إلى التضاد. وهكذا عاش شطرين من حياته؛ تمثل الشطر الأول بالحياة العادية، ومن ثم عصفت به حياة التشدد والعنف بفعل التربية التي يشترك بها البيت والمدرسة والمؤسسة الدينية، ولتسلمه

تلك التربية إلى التطرف. وهذا نفسه ما ألفيناه في حياة سعد في رواية (غراميات شارع الأعشى) الذي كان في الشطر الأول من حياته شاباً مقبلاً على الحياة ومباهجها مستمعاً إلى الأغاني، ولكنه ما لبث أن انقلب على نفسه بفعل تشبعه بما هو شائع في الحياة المحلية التي جعلته ينقلب رأسا على عقب وليدخل في جماعة جهيمان التي احتلت بيت الله الحرام ويفقد حياته مع تلك الجماعة، بعد أن مارس العنف مع حبيبته عواطف ومن ثم مع زوجته الجازي وحتى مع أمه التي تنسى أحيانا أن تقفل المذياع الذي يبث الأغاني مما كنا قد تناولناه في دراسة سابقة[٢٩].

وهذا ما نكاد نلمسه في هذه الرواية فزاهي يقبل على سماع الأغاني عندما كان في مقتبل العمر ودخل ثماني حصص عند صديقه المصري لتعلم المقامات الموسيقية من دون أن يتقنها[٣٠]. ووالده استطاع أن يشتري التلفزيون ذا اللونين الأسود والأبيض؛ مما كان سبباً في توافد الجيران إلى بيتهم لغرض مشاهدة الأغاني والمسلسلات البدوية بنحو خاص، مما يعني أن المجتمع القروي والمدني كان يحث الخطى نحو الحياة المدنية؛ يقول: "مجتمعنا الجنوبي كان جميلاً ميالاً للموسيقى، وحكايات الحب التي لا تنتهي"[٣١]. بيد أن نهاية السبعينيات من القرن العشرين قد شهدت تطورات خطيرة على المستوى المحلي السعودي؛ بفعل موجة التدين المبالغ فيها والتي حولت الكثيرين إلى التشدد وممارسة العنف لأجل إسماع الصوت وتوصيل الفكرة بالقوة ومن ثم تغيير الجهة السياسية السائدة. وهو ما وجدناه عند الشقيق الأكبر لزاهي الذي اتصل بالمتطرفين، يقول" في تلك الفترة، أي أواخر السبعينيات، تدين أخي الأكبر تديناً حاداً جداً متأثراً بالمتطرفين، الوافدين من بلدان مجاورة، وكذلك تأثر بعمله في المدارس القرآنية مع مجموعة من المغالين، الذين استطاعوا أن يضموه إليهم فحمل فكرهم وتحمس لهم"[٣٢]. فمارس الأخ الأكبر لزاهي ما مارسه سعد في رواية (غراميات شارع الأعشى)؛ ولا سيما التلفزيون الذي كان يواظب على إطفائه وكاد أن يصل إلى مصير سعد الذي قتل مع جهيمان في حادثة احتلال بيت الله الحرام لولا أن هذا الأخ لزاهي كان في بداية تدينه وكان جهيمان وأتباعه قد بدأوا تجمعهم لذلك نجا من الموت بعد التحقيق الذي عملته الحكومة معه. ومن خلال ذلك ندرك أن جهيمان وجماعته "كانوا يدورون بالناس يعظونهم ويأخذون تأييدهم، محتجين على الفساد الأخلاقي برأيهم، الذي تبدت مظاهره في أغنيات التلفزيون والنساء الظاهرات فيه وغير ذلك. وانتهت باحتلال الحرم المكي. كان هدفهم من ذلك الثورة على النظام السعودي، الذي كانوا يعتقدون فساده، وأن عليهم تطهير البلاد من هذه الحكومة الكافرة بزعمهم، إلا أن الدولة استطاعت إخمادهم والفتك بهم داخل الحرم، والقبض على جهيمان وعدد من أتباعه وإعدامهم إثر ذلك"[٣٣].

وفي ضوء ذلك يبدو أن هذه الجماعة المتشددة في أفكارها وفي نظرتها إلى تطبيق الدين والشريعة الإسلامية كانت ذات قاعدة شعبية في المجتمع، وأن هذه القاعدة بدأت تتسع شيئاً فشيئاً، وقد وجدت

أفكارها صدى لدى الشباب قبل الكبار، إذ إن هؤلاء الشباب قد فاقوا الكبار بالتشديد الديني والاجتماعي. وذلك يشكل مفارقة كبيرة في المجتمع السعودي، ولعل من المفارقات العجيبة التي رصدتها الرواية أن الأجداد "قد تزوجوا عن حب، وآباؤنا الذين عاشوا قبل خمسين سنة، على الأقل هنا في عسير، التقوا أمهاتنا واتفقوا على الزواج واختار بعضهم بعضاً، على العكس مما يحدث الآن"[٣٤]. فالشاب في هذه الأيام لا يمكن له أن يلتقي بأية امرأة إلا سراً، وذلك ما يعني أن هناك تغييباً مقصوداً للمرأة من الحياة العامة ومن الرجال تحديداً. وهو ما يتبين من خلال شخصية حسن الذي كان يلتقي الكثير من الفتيات ويمارس معهن الفاحشة أو السهر مما عرَّضه لكثير من المواقف، ولكنه عندما وجد شاباً مع أخته هرع إلى بندقيته وقتل ذلك الشاب ولولا اختفاء أخته عن عينيه لقتلها أيضاً مع عشيقها[٣٥]، وهو يعلم أن فعلته هذه ستوصله إلى الإعدام.

كما يبدو أن لهذه الجماعة المتشددة طرقها في استقطاب الشباب، ومن ذلك ما فعله الأخ الأكبر لزاهي عندما أغرى زاهي بالانضمام إلى المدرسة القرآنية بدلاً عن المدرسة الحكومية بعد أن وعده أخوه الأكبر المتطرف دينياً بالمال عند الانضمام إلى هذه المدرسة" سأعطيك كل ما تريد لو طلبت إلى أبي أن تكون في هذه المدرسة"[٣٦]. فضلا عن ضمان الجنة " زاهي المدرسة القرآنية تضمن بها الجنة، فقط ستحفظ القرآن، وتصير شيخاً كبيراً، يحبك الناس ويطلبون إليك أن تدعو لهم"[٣٧]. بيد أن هذه الوعود ذهبت أدراج الرياح حينما وافق والده ودخل المدرسة، إذ لم يجد غير التهديد والوعيد وتطبيق أشنع أنواع العقوبات بحقه وحق زملائه "كان المعلمون الدينيون يصرخون ويوبخون الصغار، حتى دخل علينا أول معلم ولمجرد جلوسه أخذ يتهددنا بألوان العقاب إن نحن لم نمتثل لأوامره ونواهيه"[٣٨]. وعندما رأى المدير أحد الطلاب الشاميين يرتدي بنطالا زمجر وأرعد وضرب الطالب في كل جسده لأنه يلبس لباس الكافرين بزعمه[٣٩]. وذلك ما شكل صدمة للفتى زاهي "لقد كانت صدمة عنيفة ، كانت كل كلمات أخي عن اللعب والمرح وطريق الجنة والسعادة تتحول إلى أشباح مخيفة، لها أنياب حادة تنظر إليَّ وتقهقه"[٤٠]. وهو ما أسهم بتشكيل نفسية جديدة لدى زاهي وأضرابه من الطلاب تعتمد العنف أصلا من أصولها، وهو ما شكل الحلقة الأولى من حلقات التطرف ليس عند زاهي فحسب وإنما عند أقرانه ومن هم بعمره.

وفي هذه المدرسة بدأ يُزرع في نفس زاهي التحريم الذي يوصل إلى التكفير، إذ إنه أراد مرة أن يرسم فراشة كونها مقربة إلى نفسه فلم يجد إلا العنف ماثلا أمامه "فهوت على يدي عصا المعلم، وحين سحبت يدي من شدة الألم، صرخ بي :" إن رسم ذوات الأرواح حرام" أمرني أرسم المساجد والكعبة والقدس التي كنت أحبها"[٤١]. بيد أنه بدأ يشعر بالاشمئزاز من هذه المقدسات بفعل العنف الذي مارسه المعلم معه. كما أنه بدأ يتحايل في عدم الذهاب للمدرسة إذا لم يكن قد حفظ ما طلب منه لئلا يتعرض للضرب والعنف وبصفة خاصة من مدير المدرسة المتشدد الذي حوَّل المدرسة إلى ما يشبه المعتقل.

وهذا ما ولَّد في داخل زاهي إنساناً آخر على الرغم من أنه كان يتبع المعلمين في الظاهر وحتى في مظهره الخارجي الذي صار يتوافق وما يريده المعلمون " لبست الثياب القصيرة، وهدلت الشماغ على صدغي، ولم يكن السؤاك ليفارق فمي، وتعلمت كلماتهم ودعواتهم الخاصة، لكنني كنت كائنا آخر في داخلي"[٤٢]. فهو يحب الأغاني والصور والرسم واللعب ولكنه لا يستطيع ممارستها مما يولد كبتاً داخليا وثورة جموحة؛ بدليل أنه يقول كنت أصلي وأقف والسواك بفمي، لكنني لم أكن على وضوء"[٤٣]. بل تصل ثورته إلى بغض "كل ما يتصل بالسماء"[٤٤]. ومحاولة التنصل من الموروث الديني؛ بحيث أنه قد أكره مرة على صيام رمضان وعندما يتهدده الجوع والعطش كان يتوارى عن الأعين ليأكل ويشرب، وذلك يعني أن في داخله شخصية أخرى غير الشخصية الظاهرة.

وعندما تنتهي سنوات الدراسة الابتدائية وينتقل أخوه الأكبر إلى مدينة أخرى يصرُّ على الالتحاق بالمدرسة المتوسطة الحكومية، التي لا يوجد فيها ضرب ولا تعنيف كما هو حال المدارس الدينية وحتى (موجة التديين) التي شملت المدارس كلها فإنها في المدارس الحكومية كانت أقل وطأة. فكانت الحياة في هذه المدرسة تنتقل إلى الضد من حياة المدرسة السابقة بحيث كان "الانعتاق بعد الكبت والفرج بعد الضيق والعبث بعد الحصار والحرية بعد المعتقل"[٤٥]. بيد أن المرحلة الحاسمة التي عاشها زاهي كانت في المرحلة الثانوية الأكثر انضباطا بتعبير الرواية. وكان هناك جماعة في المدرسة يطلق عليها (جماعة التوعية) وكانت لهم أساليبهم في كسب الطلاب إلى هذه الجماعة. فقد كان لهذه الجماعة نشاطات رياضية وتربوية، وقد أرسلوا أحدهم إلى مفاتحته بالانضمام إلى فريق كرة القدم ولا سيما في أيام شهر رمضان الحافل بمحاضرات توعوية بقيادة الشيخ حميد الذي حدثهم "عن برنامج الجماعة طوال ليالي رمضان، وقوانين البقاء بها واحترامها .. فهناك محاضرات وندوات ودروس وعلم وحفلات وعظية وتذكير بالله وصلاة وعبادات كثيرة"[٤٦]. وهكذا يمضي زاهي مع هذه الجماعة التي تعين له أحد أعضائها للاتصال به وتلقينه مبادئها، إذ يعرض عليه (يحيى) الصداقة الدائمة بحيث صارا لا يتفارقان وإنما يجمعهما تل أو ربوة ليحدثه عن الآخرة وأنه يحلم لو يلتقيان هناك في الجنة لأن الحياة الحقيقية في الجنة أما الحياة الفانية فهي الحياة الزائفة والرخيصة والبالية التي يعيشونها.

وفي نهاية السنة أعلنت الهيئة رحلة خلوية تستمر خمسة أيام فمضى مع يحيى وبمعية الشيخ حميد وبقية أفراد الجماعة ليلمس " الحب والإخاء غير المشروط والتضحيات والإيثار والخشوع وقيام الليل الروحاني وقراءة القرآن ...تحت غطاء الحب في الله"[٤٧]. ويمارس في المعسكر واجبات كثيرة تصل إلى التعليم العسكري والنفسي. وعندما حان وقت العودة من المعسكر عاد مع صديقه يحيى الذي سار به نحو المقبرة وكان يضع شريطا في مسجل السيارة لشيخ يتحدث فيه عن هادم اللذات وعن عالم ما بعد الموت. ثم يطلب منه أن ينزل في قبر محفور " قال لي : اهبط واضطجع وابك وخف ما استطعت، فالله لا يجمع على عبده

خوفين .. هنا تؤول وهنا تصير وترى مقعدك من النار، فابك، وخف ما استطعت... ولم نعد من هناك إلا وأنا أريد أن يدلني يحيى على أي شيء أفعله لأنجو من النار ومن هذا الرعب.."[٤٨]. فهو يريد أن يحقق ما يشاؤون ليطهر نفسه ويجعل منها إنسانا صالحا. بمعنى أن ما زرعه فيه المتدينون قد بدأ يؤتي أكله.

وعندما وجد أهله على ما تركهم اصطدم بواقعهم " أواه كم كرهت عائلتي وأهلي وبيتي، الذي يعج بالموبقات والمعاصي كما كان مشرفو المخيم يصفون أمثاله من البيوت، لقد كان مملوءاً بالفساد من تلفاز وصور وأصوات الأغاني وغيرها"[٤٩]. وبذلك فإنه يجد أن أهله قد انحرفوا عن الطريق السوي "رجعت إلى بيتي لأطبق الحق الذي علمنيه المخيم ويحيى والجميع هناك، الحق الذي يرمي بالعالم كله في النار إلا نحن"[٥٠]. وهكذا توجه إلى والده وأمه وهو يصرخ فيهما بأنهما قد ابتعدا عن الله، وحتى أخاه الأكبر فقد وجده قد ابتعد عن الصراط المستقيم عندما انتكص بعد أحداث الحرم وصار ماجناً وحداثياً وعلمانياً ولذلك فهو كافر، وهذا ينسحب على بقية أخوته الذين لا يشك بكفرهم. ولذلك فلم يبق لديه إلا ترك الدار والهرب إلى تلك الجماعة ليعيش مع أحد أعضاء المجموعة في غرفة واحدة وليصبح واحدا منهم. ومن ثم يترحل في مجموعات تسلمه الواحدة للأخرى حتى يحل عند الشيخ علي الذي يتسم بالوقار ولكنه يخبر زاهي بأن "هذه اللقاءات ليست مجرد حلقات ذكر، بل هي فوق هذا عمل سري منظم على مستوى المناطق كلها، يهدف إلى إقامة كيان جديد، على هذه الأرض، يحكم بشريعة الله وسنة رسوله وتخطط لهدم دول الكفر والظلم، وتعمل لإعادة المجتمع إلى حياض الدين وإخراجه من جاهليته"[٥١]. ناهيك عن أنه قد اقتنع أنه من الفرقة الناجية التي ستذهب كل الفرق عداها إلى النار وهي ستكون الفرقة المنصورة.

وهناك مستوى آخر توقفت عنده الرواية، وهو أن هناك تركيزاً واضحاً في الرواية على الكبت الجنسي الذي يمكن أن يجعل الطفل عندما يتمتع بقدر من الجمال عرضة للتحرش الجنسي من الذين يكبرونه وهو ما حصل مع زاهي نفسه الذي كان يتمتع بوسامة وبسببها تعرض للتحرش والإساءات مما جعله يبتعد عن الكثيرين ويلجأ إلى رعي الأغنام وتربية القطط بعيداً عن المتسكعين في طفولته وقد تعرض الكثير من الأطفال إلى ممارسات مشابهة. وهو نفسه قد تعرض إلى هجوم المتشددين الذين رموه بتهمة التحرش بالصغار الذين دخلوا في حلقاته التوعوية. وكانت السبب الرئيس في انفصاله عن هذه الجماعة في عنفوان اتصاله بهم؛ وقد غيرت هذه الحادثة تفكير البطل تغييراً حاداً بحيث انقلب على نفسه وعلى الجماعة السلفية انقلاباً غَيَّرَ مجرى أحداث الرواية ككل. وبما يفضي إلى القول إن التحرش الجنسي هو المحرك والدافع لكثير من توجهات هذه الحركات الدينية التي تركز على موضوعة الجنس وبه تسير دفة أعمالها.

بيد أن هذه الأفكار ما لبثت أن صارت من مخلفات الماضي، عندما صار ميالا للانفتاح وصار أديبا وكاتبا مشهورا. وهذا ما سبب الانقلاب عليه ليس من الفئة المتشددة فقط وإنما من غالبية فئات المجتمع؛ ومن

ذلك أنه وجد أن الموسيقا حلال وكتب مقالا عنها ونشره في أحد الصحف المحلية يقول فيه: إن "الموسيقى روح الحياة، وأن الخير للأجيال الآتية أن تتعلم الموسيقى التي حرمناها"[٥٢]. لتقوم قيامة المتدينين، ويتجه ثلاثون شيخاً منهم إلى شيخ قبائل عسير التي ينتمي هو إليها طالبين محاسبته كما أنهم طلبوا من والده أن يذهب إلى المحكمة الشرعية لكي يتبرأ منه ويقيم عليه دعوى الردة عن الدين، وكاد والده أن يفعل ما طلبوه منه لولا تدخل أخيه الأكبر واضطراره لأن يتراجع[٥٣]. وعندما ارتقى أحد المشايخ المشهورين المنبر في أحد المساجد أقنع الجالسين بحرمة الغناء والموسيقا ومن ثم ختم حديثه بالدعاء على من يقول بخلاف ذلك "فيرفع يديه للسماء ثم يبتهل عليّ ذاكراً اسمي .. كان في المسجد ألفان من المستمعين يؤمنون على دعائه:" اللهم جمد الدم في عروقه، اللهم أرنا فيه عجائب قدرتك، اللهم ألعن العلمانيين والحداثيين واجعل كيدهم في نحورهم.."[٥٤]. فضلا عن محاولة نقله إلى منطقة نائية بعد أن تواطأ مديره مع المسؤولين في الإدارة العامة. وذلك كله يفضي إلى القول إن هذه المؤسسة الدينية المتزمتة في أفكارها وطرحها لأمور الدين ما زالت تسيطر على الوضع الاجتماعي في المملكة.

وبذلك يعيش البطل زاهي حياتين كان في الأولى متطرفا مع المتدينين وكان في الثانية متطرفاً أيضا ولكنه ضد المتدينين؛ فهو في الحالتين يعيش التطرف. بيد أن الرواية تنحرف عن هذه الجادة السردية لحكاية زاهي التي تماثل رواية السيرة ونصبح وكأننا إزاء توجسات شخصية ما تلبث أن تعاود لطرح ما كان قد طرح سابقا أو تحاول إثارة بعض التساؤلات عن الحياة والجمال والموسيقا وبما ينأى عن السرد السابق وكأن الرواية قد انتهت منذ أن انفصل زاهي عن تلك الجماعة وبدأ يمارس حياته بشخصيته التي أرادها هو لا بشخصية العنيف الذي يكفِّر الآخرين ويرى نفسه الصحيح من دونهم. وقد ردَّ المؤلف نفسه حين سئل عن ذلك فقال: " إني كتبت بانسياب وصفاء دون أن التفت لوجود من سيقرأ ذات يوم، لقد كتبت وكل ما كان من حضور للآخرين، كان مشطوباً في ذهني .. أنني أكتب دوما على طريقة تنفسي، بكل عفوية"[٥٥]. ولكن العفوية لا تعني أن ينقلب السرد إلى تهويمات ذاتية وربما إلى شطحات بعيدة عن عالم السرد وقد تكون خالية منه، كما هو حاصل في الشق الثاني من الرواية.

ثالثاً: العنف الاجتماعي في رواية غراميات شارع الأعشى لبدرية البشر:

أشرنا سابقاً إلى أن رواية غراميات شارع الأعشى تزخر بأكثر من نمط من أنماط العنف ولا سيما العنف الديني الذي تؤول إليه بقية الأنواع من العنف وتنطلق منه في الغالب، ولكننا سنركز هنا على العنف الاجتماعي لأننا تحدثنا عن العنف الديني في رواية الإرهابي ٢٠ في الفقرة السابقة، فضلا عن دراستنا لذلك النمط من العنف في هذه الرواية بدراسة سابقة[٥٦]. فقد عصف العنف الاجتماعي بأغلب شخصيات الرواية النسوية من دون أن نعدم ممارسة العنف بين الرجال أنفسهم أيضاً، وهو ما لمسناه بالمشاجرات

الكثيرة التي وقع ضحاياها بعض الرجال ولا سيما سعد عندما اصطدم بأحد أولئك الذين يعاكسون النساء إلى حد أن ملابسه قد تمزقت من شدة الشجار، بحيث أن عزيزة بطلة الرواية قد وصفته مرة عندما تمكنت منه الحالة الدينية واستسلم لها بكل جوارحه بالقول" خرج سعد بهيئة مختلفة، وجهه تغير، عيناه تشبهان العينين اللتين شاهدتهما في عراكه مع ذلك الشاب الذي غازلنا في السوق. عيناه ملؤهما التجهم والغضب"[٥٧]. وعلى العموم فإن هذه المشاجرات التي تحصل في المجتمعات الإنسانية كافة لا تنعدم في معظم الروايات الخليجية سواء التي تناولناها سابقاً أم التي أشرنا إليها. ويبقى العنف الذي يمارس إزاء النساء هو الذي يحرك هذه الرواية من أولها إلى آخرها. بحيث تتمنى بطلة الرواية في أحد المرات أن تكون ولداً حتى تمارس حياتها بالطريقة التي تريدها هي وتتمنى أن يكون بإمكانها أن تعود للبيت متى شاءت بعيداً عن رغبات الأهل ونزواتهم التي تقلص حدود حرية المرأة إلى حدود متناهية في الوجود[٥٨]. وكما يبدو فإن هذه الممارسات لا تقتصر على وضعية المرأة الخليجية فحسب وإنما تمتد إلى وضع المرأة العربية عموما، فهناك من يشير إلى أن المرأة العربية "ما فتئت بعد تئن تحت وطأة ترسانة من القوانين الظالمة والممارسات الذكورية الشرقية المتسلطة"[٥٩]. بل أن هناك من ربط بين ازدهار الكتابة النسوية وبين التمرد على الواقع السلطوي المتمثل بالسلطة الذكورية؛ سعياً منها وراء الحرية والمساواة حتى وإن تطلب ذلك العبث بالتابوهات المستقرة والسائدة في المجتمعات العربية ردحا طويلا من الزمن ومواجهة التاريخ الطويل من التحريم[٦٠]. وهو ما أسماه الدكتور محمد برادة نقد المحرمات؛ الذي يتكئ على توجيه اللوم والنقد إلى المسلمات الأساسية في المجتمع وهي الدين والسياسة والجنس[٦١]. ولكنها ذات نكهة خاصة في الرواية السعودية على أساس أن الرواية السعودية تصبو للقيام بتشريح واقع اجتماعي مغيب عن الإعلام وفي مجتمع محافظ، كما تقول الباحثة علياء العمري[٦٢].

فالمرأة في هذه الرواية تتعرض إلى صنوف كثيرة من العنف، بحيث يغدو هذا العنف هو المحرك الأساس لأحداث الرواية ولا نكاد نقف على امرأة في الرواية وهي لم تتعرض إلى العنف، وبصفة خاصة في حالات عواطف ومزنة والجازي وحتى عزيزة وغيرهن من النساء اللائي توقفت الرواية عند تعنيفهن. وهو في الغالب ينبع من أسباب اجتماعية ودينية، إذ إن كثيراً من النساء قد تعرضن إلى العنف الديني أولا ومن ثمّ العنف الاجتماعي، بفعل السلطة الدينية أو الذكورية المهيمنة على المجتمع؛ فقد ألفينا السلطة الدينية الممثلة بهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكيل التهم غير المبررة للنساء اللائي يخرجن إلى الشارع ومن ذلك أن أحد رجال هذه الهيئة قد بصق في وجه عزيزة حينما وجدها جالسة في المركبة بغير غطاء الوجه.

وهناك حالات كثيرة لتصرفات أفراد هذه الهيئة تعج بها الروايات السعودية وليس هذه الرواية فحسب ومنها – على سبيل التمثيل – رواية نساء المنكر لسمر المقرن التي تعرضت فيها البطلة إلى أنواع العنف كلها

من قبيل الضرب والجر على الرصيف وارتفاع الصوت كقول البطلة " ارتفع صوت رجل الهيئة وبدأ بالصراخ فيما انقض على رئيف أربعة من الملتحين وخامسهم جندي ببذلة عسكرية فكتفوه وسحبوه وأنا أبكي فإذا بسادس يجرني من عباءتي :قدامي يا الداشرة. فزعت من هذا المشهد، وصرخت لعل الناس تنجدنا، فهوى بيده على وجهي حتى شعرت بأني فقدت البصر"[٦٣]. وهذا الأمر نفسه يتردد أيضا في رواية (بنات الرياض) لرجاء الصانع عندما أشارت إلى ممارسات هذه الهيئة إزاء من ينفرد بامرأة وهو ما حصل مع الشاب علي الذي ربطته علاقة عابرة بلميس صديقة أخته فاطمة وقد تعرض على أثرها إلى ممارسات لا إنسانية ولا سيما عندما علموا أنه من الطائفة الشيعية التي تبتعد في توجهاتها عن توجهات الهيئة ابتعاداً كبيراً[٦٤]. وفي رواية (غراميات شارع الأعشى) تتكرر أفعال هذه الهيئة مرات عدة، ومنها أن أصوات الغناء قد فقدت من محلات بيع الكاسيتات، تقول "لم أعد أسمع صوت الأغاني الصادحة من المحلات. اختفى صوت أبو بكر بالفقيه وحل محله صوت رجل يصرخ (يا عباد الله). التفت ناحية السيارة المجاورة، نظر شاب بلحية كثيفة ناحية السيارة التي أركبها ...انتظرني حتى أدرت وجهي ناحيته نظر ناحيتي، ثم بصق باتجاهي ومشى"[٦٥]. وهؤلاء يتشابهون في المظهر إلى حد أن عزيزة شاهدت شاباً من أعضاء الهيئة فتصورته جارهم سعداً الذي قُضي عليه مع جهيمان في أحداث الحرم المكي.

ولذلك فقد حاولت بعض النساء ولا سيما بطلة الرواية والساردة لمعظم أحداث الرواية (عزيزة) أن تثور على هذا الواقع لتبحث عن نفسها؛ وهو ما أسمته علياء العمري (جيل الصحوة)[٦٦]. ومن ذلك إنها حاولت أن تنزع عن كاهلها ربقة العادات الاجتماعية البالية التي يتشبث بها الرجال وأحيانا هي تستسلم لقدرها وحسب وأحيانا تجد أن الرجال أنفسهم يستسلمون لهذا القدر؛ وهو ما ألفيناه في حالة أخيها إبراهيم الذي كان يدرس في مصر وقد وقع في غرام شابة مصرية ولكنه لم يستطع أن يدافع عن حبه ولم يتزوج من حبيبته واستسلم إلى قدره بالزواج من أحدى صديقات شقيقته عواطف عندما عاد إلى المملكة. وكنا قد أشرنا في دراسة سابقة إلى أن هذه الحالة مترددة في الروايات السعودية ولا سيما في رواية (ثمن الحرية) للروائي حامد دمنهوري التي صدرت في العام ١٩٥٩م وهي حقبة متقدمة على زمن نشر رواية بدرية البشر الذي كان في العام ٢٠١٣م؛ إذ لم يستطع بطل الرواية (إبراهيم) أن يتزوج من حبيبته المصرية التي وقع في غرامها عندما كان يدرس في القاهرة أيضا، وكان يصرح لزملائه بأنه قد تشرب بالثقافة الجديدة وأنه يختلف عنهم وأنه سيحقق ما كان يحلم به من تغيير نمط الحياة والعادات السائدة؛ ولكنه ما يلبث أن يعود إلى ما انغرز فيه من الطفولة فيذعن لرغبات أهله ويتزوج من ابنة عمه من دون أن يبدي أي رأي مخالف لرغبتهم[٦٧]. مما يعني أن هناك نسقاً سائداً في الحياة ولا تستطيع الذات المفردة مقاومته أو الحد من تجليه في الواقع.

وقد حاولت المرأة الثورة على تلك الأعراف بوسائلها المتاحة ولكنها كانت تجابه بأفعال أكثر قوة وصلابة من فعلها. فعزيزة حاولت أن تبحث عن نفسها بين هذا الكم الهائل من محبطات الحياة وهواجسها، بحيث أنها تمارس عملية التمثيل والغناء والرقص أمام صديقاتها ونساء المنطقة على سطح البيت الذي يتحول إلى مكان ممسرح؛ في محاولة للتنفيس عن المكبوت. وذلك يمثل فعلاً ارتداديا إزاء الحياة في مجتمع محافظ ولا يقبل أن تمس تقاليده بأي شائبة. ومن ثمَّ فإنها قد وقعت في أكثر من علاقة غرامية واحدة خلافا لما يسود في الواقع المعاش؛ وقد بدأت هذه العلاقات بعلاقة عابرة مع عيسى الحضرمي ذلك البائع في سوق الحارة ومن ثم فقد ارتبطت بعلاقة مهمة مع الطبيب أحمد المصري عندما تعرضت إلى وعكة صحية شديدة أفقدتها نظرها لبرهة من الزمن. وقد كانت هذه العلاقة العاطفية محل نزاع ذاتي ومجتمعي فالمجتمع لا يقبل أن تتزوج إحدى الفتيات السعوديات من الغريب. ولكنها كانت تتبع قلبها في تحركاته التي تنزع إلى الانفتاح. وذلك ما يمكن معاينته من خلال الحديث الذي دار بينها وبين أخيها إبراهيم عن العلاقات العاطفية التي وجدها إبراهيم لا تصلح إلا للأفلام، تقول:

- قلت له :
- والحب ؟
- قال لي إنه يصلح للقصص والأفلام. لكنه لا يصدق عندنا.

سألته والبنت اللي تتزوج مصري؟

نظر إليَّ وضحك ومرر بأصبعه على رقبته إشارة إلى أن الجواب هو الذبح[٦٨].

فالعلاقات العاطفية محرمة في مجتمع محافظ مثل المجتمع السعودي، ولذلك فهي تنحسر إلى حدود ضيقة في مجتمع الرجال وتنعدم في حلقة النساء الأضعف دائما في هكذا مجتمعات، وهذا ما أسلم البطلة إلى أن تقبل الزواج من أبي فهد علّها تستطيع الثورة على المجتمع وأعرافه البالية على أمل أن تحصل على جواز السفر من هذا الزواج ومن ثمّ تهرب مع عشيقها الطبيب المصري ولكنها لم تستطع أن تحقق رغبتها بعد أن رفض حبيبها تحقيق هذا المطلب وفقدت عزيزة أغلى ما كانت تملكه. وهذا الخسران دليل على المكانة المنحطة التي تقبع فيها المرأة في المجتمع لأنها فقدت عنوستها عندما أقبلت على الزواج بمن يكبرها بأعوام مديدة ومن ثم فإن خسارتها أصبحت مضاعفة، وهذا دليل على تردي الوضع الاجتماعي وبؤسه لمن يتحدى المسلمات التي أضحت غير قابلة للتغيير بفعل الزمن وتشبث الناس بها.

كما يبدو أن المرأة وبفعل هذه الظروف الاجتماعية قد أضحت متوائمة مع هذه العادات بحيث نجدها أحياناً قانعة بمصيرها الذي يرسمه لها الأهل. ومن ذلك أن عواطف شقيقة عزيزة قد قبلت رد والدها عند رفض طلب سعد للاقتران بها بحجة أنه لا يملك وظيفة وعندما نصحتها عزيزة بإشهار عاطفتها وإعلان موقفها

الحقيقي من سعد؛ ردت عليها عواطف: " – أقول بلساني إني أبغي سعد؟ أفضح نفسي يا خبلة. الموت ولا الفضيحة"[٦٩]. وهكذا يتساوى إعلان الرغبة بالزواج بالفضيحة عند عواطف وعند كثير من أضرابها ولذلك تقف المرأة منزوية عن ما يجول في خاطرها، وقد تستسلم لأهواء العائلة حتى وإن كلفها ذلك سعادتها ونفسها كما هي حالة عواطف. وقد يصل الأمر إلى ممارسة العنف الجسدي ضد المرأة، وهو ما ألفيناه في حالة عطوى التي يعاملها زوج أمها معاملة قاسية، إذ يضربها جهم بشدة لأتفه الأسباب ومرة ربطها يومين في شجرة الرمان، ولم يكن يطعمها إلا كراثاً وخبزاً[٧٠]. فضلا عن أن زوجته عفرة تريد تزويجها عنوة وبدون رغبتها من ابن عمها، تقول:" ستتزوج رجلا يجوعها ويضربها ويشدها من يدها ويفرك جسدها في الليل"[٧١]. مما اضطرها للهروب خارج البيت والمنطقة ولتستقر عند أم جزاع تلك المرأة التي تتميز بالجلد والعمل في السوق حيث تشاركها العمل. وهذا فيما يلوح لنا من مجالدة المرأة وسعيها الدائم إلى المواجهة والمجابهة، بحيث يغدو هذا الهم من أهم المسلمات التي تتردد في عالم السرد النسوي. كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين عندما قارن بين عمل الروائيات العربيات وفعل سيزيف الذي كان في محاولة دائبة مع صخوره التي تسقط إلى أسفل باستمرار[٧٢]. فكلما كانت المحبطات كبيرة وكثيرة وجدنا فعلا معاكساً ومناقضا له عند الروائية العربية وبصفة خاصة عند روائيات الخليج العربي ومن دون استثناء.

وقد انسحب الوضع المزري للمرأة إلى معظم النساء إذا لم نقل كلهن بحيث أنهن أرغمن على الزواج من خارج العلاقات التي أقمنها كما هي حالة بطلة الرواية عزيزة وأختها عواطف والجازي ابنة المرأة البدوية وضحى وفلوة التي تزوجت من أبي فهد الرجل المسن الذي انتهت العلاقة معه بالخيانة الزوجية التي سنشير إليها لاحقا. اللهم إلا مزنة ابنة وضحى التي نالت ما أرادته وخططت له بعد أن علمت أمها بفكرتها التي أرادت أن تهرب مع عشيقها رياض الفلسطيني الأصل وعندما علمت أمها بخطتها في الهروب معه وافقت على مضض وأجبرت أخويها بالموافقة على زواجها منه. وقد كاد الشقيق الأصغر ضاري أن يقتلها بسكين المطبخ لولا تدخل الشقيق الأكبر متعب والأم بعد أن ضربها بشدة وأسقطها أرضاً، لأنها خرجت عن طوع التقاليد وأجبرتهم على الزواج من غير السعوديين. مما يعكس العنف الأسري الذي يمارس إزاء البنت والمرأة عموما عندما كانت تخرج عن طوق الأعراف أو التقاليد الاجتماعية السائدة.

وقد انتهى كثير من الزيجات نهاية مأساوية ومنها حالة فلوة التي تزوجت رغماً عنها من أبي فهد وهو الرجل الذي يكبرها بثلاثين سنة؛ وقد أوصلها ذلك الزواج إلى أن تقيم علاقة محرمة مع عيسى الحضرمي الشاب الذي يبيع الأقمشة في السوق والذي وقعت في غرامه عزيزة في علاقة عاطفية عابرة ببداية مراهقتها. إذ إن عزيزة هي التي كشفت عن هذه العلاقة عندما كانت ذاهبة لإيصال الرمان هدية لهم وعندما وضعت قدمها على عتبة دار أبي فهد سمعت "دمدمة أقدام تهبط الدرج قرب باب المنزل من الداخل، سمعت صراخ رجل يركض، ثم فتح

الباب وقفزت منه قامة شاب أسمر ضربت كتفه قدري، فتناثر الرمان على الأرض، وانفتح الباب على مصراعيه مثل سر هتكت أقفاله. شاهدت رجلاً آخر تعثرت قدمه في السلم لكنه نهض مسرعاً ولحق بفلوة التي ركضت هي الأخرى في رواق المنزل الطويل، أمسك بها وأخذ يجرها من قدمها إلى المطبخ وهو يصرخ فيها :

- من هو ملعون الوالدين هذا؟ تدخلين رجال لبيتي ! والله أن أذبحك.

صوت فلوة يصلي وهو يقول:

- ما بيك. ما بيك!"[٧٣].

وهذا ما سبب صدمة نفسية قاسية لعزيزة التي شاهدت عيسى وهو يخرج من المنزل هارباً، بحيث أنها انسحبت تحت الغطاء دلالة على تذمر من واقع قاس جعل المرأة تفقد أهم شيء وتحافظ عليه في مجتمع لا يعير أهمية للمشاعر بقدر ما يعير أهميته للأعراف والتقاليد السائدة. ولعل هذه الخيانة الزوجية هي نتيجة منطقية لما مورس تجاه المرأة من وسائل تعنيف ومعاملة قاسية.

الخاتمة:

يمكننا إجمال ما توصلنا إليه في البحث بالفقرات الآتية :

١- تكاد تنحصر مشارب العنف في الرواية السعودية وتتحدد في ثلاثة مستويات أساسية على وفق الهموم التي شكلتها وهي الهموم السياسية والهموم الدينية والهموم الاجتماعية.

٢- انكشفت الهموم السياسية والدينية والاجتماعية في الرواية السعودية بعد أن جنحت تلك الرواية إلى ملامسة الذات والتعبير عنها وابتعدت عن عالمي الصحراء والماء اللذين كانت تتوجه إليهما.

٣- كان للرواية السعودية قصب السبق في الرواية العربية بإظهارها تجربة السجن السياسي، ولا سيما في أعمال عبدالرحمن منيف وتحديداً في رواية شرق المتوسط وقبلها رواية الأشجار واغتيال مسعود.

٤- عجّت الروايات السعودية بالممارسات اللاإنسانية التي يتعرض لها المساجين في عموم مناطق الوطن العربي.

٥- ركز كثير من الروايات السعودية على ثيمة التطرف الديني وحاولت إظهار مسبباته وأساليبه.

٦- عدت الروايات السعودية المدروسة هيأة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر السبب الرئيس في تفشي ظاهرة العنف في المجتمع السعودي.

٧- جمعت الروايات بين الهم الديني والهم الاجتماعي في بوتقة واحدة بحيث تداخلت همومهما وآثارهما تداخلا واضحا.

٨- أظهرت الروايات السعودية أن المرأة تعاني من التهميش ويمارس بحقها أنواع شتى من الضغوط والممارسات السادية التي لا تكفل لها حقها في الحياة.

الهوامش:

١- أدب السجون في الثقافة السعودية- عبدالله السمطي، بوابة إيلاف الالكترونية https://elaph.com/web/culture/2010/9/597405.html

٢- النص والجدار .. تجربة السجن في الأدب العربي المعاصر – د. عمار علي حسن ، منشور في كتاب أدب السجون – تحرير شعبان يوسف : ٤٣.

٣- ينظر مراجعات في الأدب المصري المعاصر- عبدالرحمن أبو عوف : ٤٥٠.

٤- شرق المتوسط: ٢٢.

٥- ينظر شرق المتوسط: ٨٢.

٦- شرق المتوسط: ٢٢.

٧- ينظر شرق المتوسط: ٨١ و٨٥ و٩٤ و١٠٤ و١٥٨.

٨- ينظر شرق المتوسط: ٩٥.

٩- شرق المتوسط: ٨٦,١٠-

١٠- شرق المتوسط: ٨٠.

١١- شرق المتوسط: ٨٠.

١٢- شرق المتوسط: ٢١١.

١٣- شرق المتوسط: ٢٣.

١٤- شرق المتوسط: ٢٣.

١٥- ينظر شرق المتوسط: ١١٠.

١٦- ينظر شرق المتوسط: ٥٦.

١٧- شرق المتوسط: ٣١.

١٨- شرق المتوسط: ٤٥.

١٩- شرق المتوسط: ٥٢.

٢٠- شرق المتوسط: ٨٦.

٢١- شرق المتوسط: ٩٠.

٢٢- شرق المتوسط: ٩١.

٢٣- شرق المتوسط: ٩٤.

٢٤- شرق المتوسط: ٢١٢.

٢٥- شرق المتوسط: ٢١٦.

٢٦- شرق المتوسط: ١٢٧.

٢٧- شرق المتوسط: ١٢٨.

٢٨- شرق المتوسط: ١٥٧.

*- يرفض المؤلف إطلاق تسميه رواية على هذا العمل ويرى أن السبب في تصنيف العمل برواية في الغلاف الأمامي يعود إلى دار النشر؛ فيما يتعلق بترويجها للعمل وتسويقه، وهو يفضل أن يكون عفو الخاطر يجمع بين السيرة والرواية، فيما يشبه البوح وتسجيل ما يجول بالنفس. ينظر الرواية السعودية حوارات وأسئلة وإشكالات- طامي بن محمد السميري: ٤٩٠.

٢٩- الإرهابي ٢٠: ٢٣.

٣٠- الإرهابي ٢٠: ٤٦.

٣١- الإرهابي ٢٠: ٣٠.

٣٢- الإرهابي ٢٠: ٣١.

٣٣- الإرهابي ٢٠: ٤٦.

٣٤- ينظر الإرهابي ٢٠: ٤٧.

٣٥- ينظر الإرهابي ٢٠: ٤٧.

٣٦- الإرهابي ٢٠: ٥٢.

٣٧- الإرهابي ٢٠: ٥٢.

٣٨- الإرهابي ٢٠: ٥٣.

٣٩- ينظر الإرهابي ٢٠: ٥٣.

٤٠- الإرهابي ٢٠: ٥٣.

٤١- ينظر الإرهابي ٢٠: ٥٤.

٤٢- ينظر الإرهابي ٢٠: ٥٦.

٤٣- ينظر الإرهابي ٢٠: ٥٦.

٤٤- ينظر الإرهابي ٢٠: ٥٩.

٤٥- ينظر الإرهابي ٢٠: ٦٦.

٤٦- ينظر الإرهابي ٢٠: ٧٢.

٤٧- ينظر الإرهابي ٢٠: ٧٧.

٤٨- ينظر الإرهابي ٢٠: ٨٣.

٤٩- ينظر الإرهابي ٢٠: ٨٤.

٥٠- ينظر الإرهابي ٢٠: ٨٤.

٥١- ينظر الإرهابي ٢٠: ٩٠.

٥٢- الإرهابي ٢٠: ١٧٢.

٥٣- ينظر الإرهابي ٢٠: ١٦٨-١٦٩.

٥٤- الإرهابي ٢٠: ١٧٠.

٥٥- الرواية السعودية حوارات وأسئلة وإشكالات: ٤٩٤- ٤٩٥.

٥٦- ينظر بدايات التحديث في المجتمع السعودي وملابساته من خلال رواية غراميات شارع الأعشى- دراسة في ضوء النقد الثقافي- صباح عبدالرضا أسيود، مجلة آداب البصرة،ع (٨٤) لسنة ٢٠١٨: ١١١.

٥٧- غراميات شارع الأعشى: ١٠٩.

٥٨- ينظر غراميات شارع الأعشى: ٥٨.

٥٩- تغير صورة المرأة العربية في السرد النسائي – مريم دمنوتي ، مجلة نزوى،ع (٧٥)، ٢٠١٣.

٦٠- ينظر ملامح من صورة الآخر في السرد النسوي العربي- عوني الفاعوري ونزار قبيلات، م. الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس، مجلد(٣)، ع(٢)، أغسطس ٢٠١٦: ٣٣٩.

٦١- ينظر الرواية العربية ورهان التجديد: ٥٧.

٦٢- ينظر الرواية السعودية بين التنوير والتكفير: ٩٢.

٦٣- نساء المنكر: ٤١.

٦٤- ينظر بنات الرياض: ٧٥.

٦٥- غراميات شارع الأعشى: ٢٤٤-٢٤٥.

٦٦- ينظر الرواية السعودية بين التنوير والتكفير: ١٠٠.

٦٧- ينظر بدايات التحديث في المجتمع السعودي وملابساته من خلال رواية غراميات شارع الأعشى- دراسة في ضوء النقد الثقافي- صباح عبدالرضا أسيود، مجلة آداب البصرة، ع (٨٤) لسنة ٢٠١٨: ١١١.

٦٨- غراميات شارع الأعشى: ٢٣٧-٢٣٨.

٦٩- غراميات شارع الأعشى: ١٠٤.

٧٠- ينظر غراميات شارع الأعشى: ٨٢ و٧٦.

٧١- غراميات شارع الأعشى: ٨٦.

٧٢- ينظر ملامح من صورة الآخر في السرد النسوي العربي، مرجع سابق: ٣٣٩.

٧٣- غراميات شارع الأعشى: ١٦٨-١٦٩.

مصادر البحث ومراجعه:

١- أدب السجون – تحرير شعبان يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة ،٢٠١٤.

٢- أدب السجون في الثقافة السعودية- عبدالله السمطي، بوابة إيلاف الالكترونية، https://elaph.com/web/culture/2010/9/597405.html

٣- الإرهابي ٢٠- عبدالله ثابت، دار الساقي للنشر والتوزيع، بيروت- لندن، ط (٤) ٢٠١١.

٤- بدايات التحديث في المجتمع السعودي وملابساته من خلال رواية غراميات شارع الأعشى دراسة في ضوء النقد الثقافي، مجلة آداب البصرة ع (٨٤) لسنة ٢٠١٨.

٥- بنات الرياض – رجاء عبدالله الصانع، نسخة الكترونية من إعداد وتنفيذ المهندس أمجد قاسم ، منشورة في الشبكة الالكترونية.

٦- تغير صورة المرأة العربية في السرد النسائي – مريم دمنوتي ، مجلة نزوى العمانية، ع (٧٥)، ٢٠١٣.
٧- الرواية السعودية بين التنوير والتكفير – قراءة اجتماعية تاريخية – علياء عبدالله العمري، مجلة المستقبل العربي الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية العدد ٤٦٣ (أيلول – سبتمبر) ٢٠١٧.
٨- الرواية السعودية حوارات وأسئلة وإشكالات- طامي بن محمد السميري، دار الكفاح للنشر والتوزيع- الدمام، ٢٠٠٩.
٩- الرواية العربية ورهان التجديد – د . محمد برادة، كتاب مجلة دبي الثقافية، الإصدار ٤٩، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع،٢٠١١.
١٠- شرق المتوسط – عبدالرحمن منيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، المكتبة العالمية بغداد ، ط(٦)، ١٩٨٦.
١١- غراميات شارع الأعشى- بدرية البشر، دار الساقي بيروت ٢٠١٣.
١٢- مراجعات في الأدب المصري المعاصر– عبدالرحمن أبو عوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
١٣- ملامح من صورة الآخر في السرد النسوي العربي- عوني صبحي الفاعوري ونزار مسند قبيلات، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية – جامعة السلطان قابوس، مجلد (٣) عدد (٢) أغسطس ٢٠١٦.
١٤- نساء المنكر – سمر المقرن، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨.